الفصل الثامن
الغزوات والسرايا والأحداث بين أحد والمُرَيْسِيع

المبحث الأول: غزوة حَمْرَاء الأَسَد

أ- معالم غزوة حَمْرَاء الأسَد

فكر المشركون في الكرة مرة أخرى على المسلمين ليقضوا عليهم قضاء مبرمًا، وعندما علم الرسول ﷺ بنيتهم ندب الناس إلى المسير إلى لقائهم، وقال: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال» فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا سمعًا وطاعة، وأذن لجابر بن عبد الله بالمسير معه لأنه لم يشهد أحدًا، إذ كان أبوه قد خلفه على بناته، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد.

وعندما أقبل مَعْبَد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ، أمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فخذله وأخبره بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد ونصحهم بالعودة إلى مكة. [ابن إسحاق].

وقال الله تعالى في هذه الغزوة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾[آل عمران:١٧٢] [متفق عليه وفي البخاري أن الزبير وأبا بكر كانا من هؤلاء].

روى ابن إسحاق أنهم في طريق عودتهم من حمراء الأسد أسروا مُعاوية بن المُغِيرة، جد عبد الملك بن مروان لأمه، وأبا عَزَّة الجُمَحِيّ الذي مَنَّ الرسول ﷺ عليه بغير فداء من بين أسرى بدر، فقال: «يا رسول الله! أَقِلْنِيْ»، فقال رسول الله ﷺ: «**والله لا تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بمكة بعدها وتقول: خَدَعْتُ محمدًا مرتين**». وضرب الزبير عنقه بأمر الرسول ﷺ.

وروي أن الرسول ﷺ قال لأبي عزة: «إنَّ المؤمن لا يُلْدَغُ من جحر مرتين»، وأمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه. [أصله في الصحيحين؛ ابن هشام، بلاغًا عن ابن المسيب].

لقد كانت هذه الغزوة في الثامن من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة وقيل غير ذلك [الواقدي، وابن سعد]، إذ قال ابن إسحاق: (إنها في يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال).

ب - عبر في هذه الغزوة:

١- إن خروج الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد، يُعَدُّ مظهرًا من مظاهر الكمال المحمدي من: شجاعة وتحمل وصبر وعدم الاستسلام لأي مظهر من مظاهر الهزيمة، وحسن سياسة، وبيانًا لفضل أصحاب محمد ﷺ وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[آل عمران:١٧٢-١٧٤]. [تفسير الطبري، وفيه طرق صحيحة].

المبحث الثاني: سرية الرَّجِيع

روى البخاري أن الرسول ﷺ بعث بسرية عَيْنًا وأَمَّرَ عليهم عَاصِم بن ثابت فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفَان ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لِحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلًا نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فَرْفَد - مرتفع من الأرض- وجاء القوم فأحاطوا بهم،

فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا لا نقتل منكم رجلًا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذِمَّةِ كافر، اللهم اخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل. وبقي خُبَيْبٌ وزيدٌ ورجل آخر. فأعطوهم العهد والميثاق، فنزلوا إليهم. فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قِسِيِّهِم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْب وزيد حتى باعوهما بمكة.

فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله، استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، وقالت: «فغفلت عن صبي لي، فَدَرَجَ إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى. وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قِطْفِ عنب، وما بمكة يومئذ تمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله» [ابن إسحاق].

فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: «دعوني أصَلِّ ركعتين»، ثم انصرف إليهم فقال: «لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت». فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: «اللهم أَحْصِهِم عَدَدًا واقتلهم بَدَدًا ولا تُبْقِ منهم أحدًا، ثم قال:

ما إن أبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا ... على أي شَقٍّ كان في الله مصرعي

[وفي رواية: فلست أبالي..].

وذلك في ذات الإله وإن يَشأ ... يُبارك على أوْصَال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

[البخاري، الفتح (١٥/ ٢٥٩-٢٦٥، ح٤٠٨٦)، وقال ابـن حجـر في شرحـه لحـديث البـاب (١٥/ ٢٦٥)]: وعند أبي الأسود عن عروة زيادة في هذا الشعر، ثم ذكر البيتين الآتيين:

لقد أَجْمَعَ الأحـزاب حـولي وألَّبـوا ... قبـائلهم واسـتجمعوا كـل مجمـع
إلى الله أشكو غُربتـي بعـد كُربتـي ... وما أَرْصَدَ الأحزابُ لي عند مَصْرَعِي

وروى أبو الأسود من حديث عروة: «وقال خبيب حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد جَمَعَ الأحـزاب حـولي وألَّبـوا ... قبـائلهم واسـتجمعوا كـل مجمـع
وقـد جمعـوا أبنـاءهم ونسـاءهم ... وَقُرِّبْـتُ مـن جِـذْعٍ طويـل مُمَنَّـعِ
إلى الله أشـكو غُرْبَتِـي ثـم كُرْبَتِـي ... وما أَرْصَدَ الأحزاب لي عندَ مَصْـرَعِي
فذا العرش صَبِّرْنِي على ما يُـرادُ بي ... فقد بَضَّعُوا لَحمِي وقد يَـاسَ مَطْمعِـي
وذلـك في ذات الإلـه وإن يشـأ ... يبـارك عـلى أوصـال شِـلْو مُمَـزَّعِ
لَعَمْرِي ما أَحْفَـل إذا مِـتُّ مسـلمًا ... عـلى أي حَـال كـان لله مَضْـجَعِي

وقال ابن حجر: إن ابن إسحاق ساقها ثلاثة عشر بيتًا، والذي وقفنا عليه لابن إسحاق في سيرة ابن هشام عشرة أبيات، والأبيات الزيادة على ما ذكرناه هنا عن عروة، وهي:

وكُلُّهُـمُ مبـدي العـداوةِ جاهـدٌ ... عـليَّ لأني في وِثَـاقٍ مُضـيَّعِ
وقد خَيَّرُوني الكُفْرَ والمـوتُ دونـه ... وقد هَمَلَتْ عَيْنَايَ مـن غـير مَجْـزَعِ
ومـا بي حِـذَارُ المـوتِ إني لَمَيِّـتٌ ... ولَكنْ حِـذَارِي جَحْـمُ نَـارٍ مُلَفَّـعِ
فَـوَاللهِ مـا أرجُـو إذا مِـتُّ مسـلمًا ... على أي جنب كان في الله مَصْـرَعِي
فَلَسْـتُ بِمُبْـدٍ للعـدو تَخَشُّـعًا ... ولا جَزَعًـا إني إلى الله مَرْجِعِـي

[انظر: مغازي عروة، ص١٧٧، وقال ابن هشام (٣/ ٢٥٠)]: وبعض أهل العلـم بالشـعر ينكرها له، أي لخبيب.

ثم قام إليه عقبة بن الحارث [وفي رواية ثانية عند البخاري أن الذي قتله هو أبو سَرْوَعَة (الفتح ١٥/ ٢٦٦) وفي رواية ثالثة أنه أبو سروعة عقبة بن الحارث، الفتح (١٥/ ١٧٧) وقال ابن حجر: إن أبا سروعة هو أخو عقبة، وليس أبو سروعة وعقبة اسمًا واحدًا. وفي رواية لابن إسحاق بإسناد حسن صحيح أن عقبة بن الحارث لم يقتل خبيبًا لأنه كان صغيرًا، وأن الذي قتله هو أبو ميسرة العبدري، أخذ الحربة فجعلها في يده، ثم أخذ بيده وبالحربة ثم طعن بها خبيبًا حتى قتله]. وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قد قتل عظيمًا [هو عقبة بن أبي معيط، الذي أسر ببدر وقتله عاصم صبرًا بأمر الرسول ﷺ كما مر بنا]. من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبْر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. [عند ابن إسحاق أن هذيلًا أرادت أخذ رأسه ليبيعوه من سُلَافَة بنت سعد بن شُهَيْد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قِحْفِهِ الخمر...].

وقال حسان بن ثابت شعرًا رائعًا في رثاء خبيب ورفقائه الكرام، [انظره عند ابن إسحاق: ابن هشام (٣/ ٢٥٠- ٢٦٠)، وعروة: المغازي، ص١٧٧، قال الأعظمي: (رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف)] ومثاله قوله:

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرْقَا مَدَامِعُهَا ... سَحًّا على الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ القَلِقِ
على خُبَيْبٍ فتى الفتيان قد علموا ... لا فَشِلٍ حين تَلْقَاهُ ولا نَزِقِ

[لا ترقى مدامعها، أي: لا تنقطع. والسَّحُّ: الصَّبُّ. والقلق: المتحرك الساقط. الفشل: الجبان، والنزق: السَّيئ الخُلُقِ].

وقوله:

يَا عَيْنُ جُوْدِيْ بدمع منك مُنْسَكِبِ ... وَابْكي خبيبًا مع الفتيانِ لم يَؤُبِ
صقرًا توسط في الأنصار منصبه ... سَمْحَ السجية محضًا غَيْرَ مُؤْتَسِبِ
قَدْ هَاجَ عيني على عِلَّاتِ عَبْرَتِها ... إذا قيل: نُصَّ إلى جِذْعٍ من الخشب

[السَّجِيَّة: الطبيعة، والمحض: الخالص النسب، والمؤتسب: المُخْتَلِط. العِلَّات: المشقات، والعَبْرَةُ: الدمعة، ونص: رفع].

وهجا كذلك هذيلًا وبني لحيان - بطن من هذيل.

وأما زيد بن الدَّثِنَّة فابتاعه صَفْوَان بن أمية ليقتله بأبيه، أمية بن خَلَف. وعندما أخرجوه من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه، اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان حين قدم ليقتل: «أَنْشُدُكَ الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نَضْرِبُ عنقه، وأَنَّك في أَهْلِكَ؟» قال: «والله ما أُحِبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِيْبُه شَوكةٌ تُؤذيه وإني جالس في أهلي»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت من الناس أحدًا يُحِبُّ أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا». ثم قتله نِسْطَاسُ مولى صَفْوَان. [ابن إسحاق؛ ابن سعد، من طريق ابن إسحاق مرسلًا].

لما قُتل أصحاب الرجيع، قال ناس من المنافقين: «يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم أقاموا في أهلهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله فيهم آية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤] وما بعدها، وأنزل في أصحاب السرية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٧] [ابن إسحاق، منقطعًا، ووصله ابن كثير في البداية بسند ضعيف].

بعث الرسول ﷺ عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ وحده إلى قريش، قال: «فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون، فرقيت فيها، فحللت خبيبًا، فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفت فلم أر خبيبًا، ولكأنما ابتلعته الأرض، فلم ير لخبيب أثر حتى الساعة». [أحمد في المسند وابن أبي شيبة].

كانت هذه السرية في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا من الهجرة [الواقدي؛ ابن سعد].

المبحث الثالث: سرية بئر مَعُونَة

وفي الشهر ذاته الذي أرسل فيه الرسول ﷺ سرية الرجيع، أرسل الرسول ﷺ سرية بئر معونة [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة رضي الله عنهم عُرِفُوا بالقراء، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل [البخاري]، وينفقون ثمن حطبهم على أهل الصُّفَّة [مسلم].

وذكر مسلم: أن سبب إرسالهم هو أن أناسًا جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالًا يعلِّمونهم القرآن والسنة.

وذكر البخاري سببًا آخر لا يختلف عن هذا في جوهره، وهو: أن بطونًا من بني سُلَيم، هم: رِعْل وذَكْوان وعُصَيَّة وبني لِحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بأولئك السبعين، وقد وافق البخاري ابن سعد في هذا السبب.

وذكر بعض أئمة المغازي [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الواقدي]: أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو «مُلَاعِبُ الأَسِنَّة» قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: «يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك، لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم».

ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن يكون كلا من الأمرين قد وقعا، أي إرسال الرسول ﷺ هؤلاء السبعين بناء على طلب أبي براء وبني سليم.

عندما نزلوا ببئر معونة بين أرض عامر وحرة بني سُلَيم، بعثوا حرام بن مِلْحَان - أخا سليم - بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيل، فلم ينظر فيه، وأمر

رجلًا - إيماءً - فطعن حرامًا بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حـرام: «الله أكبر، فُزْتُ وَرَبِّ الكعبة» [هنا يتفق أهل المغازي مع رواية الصحيحين].

وعندما خرج الدم من حرام رضي الله عنه نَضَحَهُ على وجهه ورأسه [البخاري]، وكأنه يريد أن يلقى ربه وكل جسمه ملطخ بدم الشهادة، فيزيده الله من الأجر.

ثم استنفر ابن الطفيل بني عامر إلى قتال المسلمين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سُلَيم فأجابته عُصَيَّة ورِعل وذَكْوَان، وخاضوا مع المسلمين معركة ضارية، قتل فيها المسلمون جميعًا، إلا كعب بن زيد بن النجار، الذي ترك وبه رَمَق، فعاش حتى استشهد في غزوة الخندق، وعمرو بن أمية، الذي كان قد تأخر عنهم هو والمُنْـذِر عُقْبَـة ابن عامر، وعندما وجدا أصحابهما قد صرعوا قاتلا المشـركين، فقتلـوا المنـذر وأسروا عمرًا، ثم أعتقه عامر عن رقبة كانت على أمه.

وعاد عمرو بن أمية بالخبر الأليم إلى الرسول ﷺ بالمدينة، وفي الطريق فتك برجلين من بني كِلَاب، هو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ، لم يعلم به، ولذا التزم الرسول ﷺ بأداء ديتهما، فأخـذ في تحصـيل الديـة مـن المسـلمين وأهل الصحيفة من اليهود.

وعندما ذهب إلى اليهود للإعانة في دية الكلابيين حاولوا قتله، مما كان مـن أسـباب غزوة بني النضير - كما سنرى.

وقد تألم الرسول ﷺ لهاتين الفاجعتين - معونة والرجيع - فأخـذ يـدعو في صـلاة الصبح ثلاثين صباحًا على الذين قتلوا أصحابه ببئـر معونـة والرجيـع: رعـل وذكـوان ولحيان وعصية. [خلاصة البخاري ومسلم].

وظهرت لعامر بن فُهَيْرَة كرامة في هذه الموقعة. فقد روى البخاري أنه لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو الضمري، قال له ابن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال: «لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنّي لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع». وكان الذي قتله جَبَّار بن سَلْمَى الكِلابي، وقد أسلم نتيجة ما رأى من حال عامر بن فهيرة ﷺ [الواقدي؛ ابن سعد]. ولم نقف على كيفية نجاة كعب بن زيد ﷺ. تقول المصادر إنه ارْتُثَّ من بين القتلى. وارتُثَّ: أي حُمل رثيثًا - أي جريحًا - وبه رمق.

حكم وأحكام وعبر ودروس من سريتي الرجيع ومعونة

١- تدل هاتان الحادثتان على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه. فليس أمر الدعوة موكولًا إلى الأنبياء والرسل وحدهم أو خلفائهم والعلماء دون غيرهم.

وعلى الرغم من استشعار الرسول ﷺ الخوف على القراء نتيجة لما وقل لأهل الرجيع، إلا أنه لم يتوقف عن إرسال بعث القراء، ومن بعده أرسل بعوثًا أخرى حتى تاريخ وفاته، لأنه كان يرى أن القيام بأعباء تبليغ الدعوة أهم من كل شيء، ليكن ما يريد الله في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته.

٢- إن معجزة التربية الإسلامية تتجلى في موقف خبيب بن عدي عندما لم يمس طفل آل الحارث بسوء، على الرغم من مواتاة فرصة الانتقام لنفسه من المشركين الذين حبسوه ليقتلوه، وتتجلى نذالة الكافرين في الغدر بأصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، ولم يشفع لخبيب عندهم موقفه النبيل من طفل آل الحارث. والغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك.

٣- إن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكن نفسه ولو قتل، ترفُّعًا عن أن يجري عليه حكم الكافر، كما فعل عاصم رضي الله عنه، فإن أراد الترخص فله أن يستأمن، مترقبًا الفرصة للخلاص، كما فعل زيد وخبيب رضي الله عنهما.

٤- إن ما ظهر من أمر خارق للعادة لخبيب عندما كان أسيرًا، دل على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

٥- مشروعية الصلاة عند القتل، وأن خبيبًا هو الذي سنها، وأقر ذلك الرسول ﷺ.

٦- تتجلى قوة إيمان ابن الدثنة في حبه لرسول الله ﷺ ورضائه بالموت ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه، وهو آمن في أهله، وكذا كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له، وذلك واجبهم وواجب كل مؤمن ومؤمنة، وإن ذلك من دلائل إيمان العبد.

٧- إن أصحاب رسول الله ﷺ هم أحب الخلق إلى الله ﷻ ورسوله، ممن يضعهم الله تعالى في محك الامتحان.

٨- مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين.

[ملخصًا عن: فقه السيرة للبوطي؛ هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، فقه السيرة للغزالي].

المبحث الرابع: غزوة بني النَّضِيْر

أولًا: تاريخ غزوة بني النضير:

روى عبد الرزاق من حديث الزهري، والحاكم، من حديث عروة، إنها كانت بعد غزوة بدر الكبرى. وذكر البخاري في رواية معلقة من الترجمة عن عروة بأنها كانت على رأس ستة أشهر من بدر، قبل وقعة أحد. وذكر ابن حجر [في الفتح]، أن عبد الرزاق قد وصلها في مصنفه عن معمر عن الزهري بأتم مما عند البخاري، وقد رواه البيهقي من هذا الطريق. وروى البيهقي [في الدلائل]، رواية عن الزهري عن عقيل بمثل رواية البخاري وعبد الرزاق.

ثانيًا: سبب الغزوة:

تشير المصادر إلى ثلاثة أسباب لهذه الغزوة:

الأول: أرادت بنو النضير قتل الرسول ﷺ بعد بـدر الكـبرى عنـدما حرضـتهم قريش على ذلك.

الثاني: محاولتهم قتل الرسول ﷺ عنـدما جـاءهم ليسـتعين بهـم في ديـة الكلابيـين اللذين قتلهما الضمري.

الثالث: حضهم قريش على قتال الرسول ﷺ، ودلوهم على العورة.

تقول المصادر عن السبب الأول، إن قريشًا أرسلت إلى اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ، فاستجاب بنو النضير لذلك، ووضعوا خطة يقتلون بها الرسول ﷺ غدرًا. فقد طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلًا من أصحابه ليلتقي بثلاثين من أحبارهم في موضع وسط ليحدثهم، فإن صدقوه آمنـت يهـود. فلـما جـاءوا قريبًـا مـن المكان، اقترحوا على النبي ﷺ أن يجتمع ومعه ثلاثة من أصحابه وثلاثة مـن أحبـارهم، وقد حمل هؤلاء اليهود الثلاثة خناجرهم، ولكن امـرأة مـنهم أفشـت سرهـم لأخ لهـا مسلم، فأخبر النبي ﷺ، فرجع عنهم، ثم استعد وحاصرهم بجنوده حتـى نزلـوا عـلى الجلاء، وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. [عبد الرزاق، بإسناد صحيح].

أما السبب الثـاني فتقـول عنـه المصـادر إن النبـي ﷺ عنـدما ذهـب إلـيهم في ديـة الكلابيين، لما كان بينه وبينهم من الحلف، جلس إلى جدار لهـم في انتظـارهم ليـأتوا بـما وعدوا به من المساهمة في الدية، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجـدوا الرجـل على مثل حاله هذه، فاتفقوا على أن يعلو عمرو بن جِحَاش ذلك الجدار، فيلقي صـخرة على الرسول ﷺ فيقتله. فأخبر الله رسوله بما أرادوا، فخرج راجعًا إلى المدينـة. وعنـدما

تأخر عن أصحابه الذين كانوا معـه، سـألوا عنـه، فعلمـوا رجوعـه إلى المدينـة، فـأتوه فأخبرهم الخبر، ثم أمر بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، ومحاصرتهم، فنزلوا على الصـلح بعد حصار دام ست ليال، على أن لهم ما حملت الإبل. [ابن إسحاق، مرسلًا، يتقوى بغيره].

أما السبب الثالث فقد انفرد به موسى بـن عقبـة [ابـن حجـر: الفـتح]، حيـث قـال: (كانت [بنو] النضير قد دسوا إلى قريش وحضُّوهم على قتـال رسـول الله ﷺ ودلُّـوهم على العورة). وقال إن ذلك كان عنـدما نزلـوا بأُحـد لقتـال رسـول الله ﷺ. [البيهقـي: الدلائل، من حديث ابن عقبة مرسلًا].

ولعل الدكتور العمري [في المجتمع المدني] لم يطلع على الرواية التي عند البيهقي ومـا فيها من الزيادة عن رواية موسى بن عقبة عند ابن حجـر، وهـذه الزيـادة هـي: «حـين نزلوا بأحد...»، ولذا قال العمري: (إن رواية موسى بن عقبة لم تحدد وقتًا للأعمال التي ارتكبها اليهود ضد المسلمين) ولعله يقصد أعمالًا معينة.

ومن المعروف أنهم حرَّضوا المشركين على قتال المسلمين فكانت أُحد، وأعـانوا أبـا سفيان في إغارته على أطراف المدينة مما أدى إلى مطاردة المسلمين له فيما عرف بـ(غـزوة السويق)، وأنّ كعبًا بن الأشرف كان يقرض الشعر في هجاء المسلمين وتحريض قـريش عليهم. كل هذا يدل على حالهم مع المسلمين إلى أن كانت محاولتهم قتله، وتسبب ذلـك في قرار لوضع حد لممارساتهم الإجرامية، فكان القرار طردهم من المدينة. [نفسه].

ثالثًا: الإنذار:

عندما صدر منهم ما صدر طلب منهم الرسول ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضربت عنقه.

وعندما استعدوا للخروج حرضهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول على عدم الخضوع، ومناهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان، فحاصرهم المسلمون [ابن إسحاق،

ابن سعد؛ الواقدي]، وقد أشارت آيات في سورة الحشر إلى هذا، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١] [الطبري: التفسير؛ ابن إسحاق؛ بأسانيد تتقوى بالمتابعة].

رابعًا: الجلاء وشروطه:

ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير عندما حاربوا، وفصلت الكتب الأخرى، وخاصة كتب المغازي والسير، كيفية هذا الجلاء ونوعية الحرب التي حاربوها.

وصح أن الرسول ﷺ حاصرهم بالكتائب، وقال لهم: «**إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك، هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلْقة - السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها**». [عبد الرزاق؛ أبو داود؛ البيهقي في الدلائل].

وقد ثبت بنص القرآن ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ روى البخاري أنها نزلت عندما حرق وقطع الرسول ﷺ نخل بني النضير، [وهي البويرة]. أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار، وثبت في الحديث الشريف [أحاديث البخاري في باب بني النضير، المصدر نفسه، وسنن الترمذي (٥/ ١٥٧ - ١٥٨/ تحفة الأحوذي)، وسنن ابن ماجه] أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار.

وتذكر بعض الروايات أنهم أُجْلُوا إلى الشام [عبد الرزاق، بسند صحيح] والبعض الآخر يذكر أنهم توجهوا إلى خيبر [ابن هشام]. وفي رواية ابن إسحاق ما يجمع بين هذه الروايات، حيث قال: «فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر: سَلَّام بن أبي الحُقَيْق وكِنَانَة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق وحُيَيّ ابن أَخْطَب. فلما نزلوها دان لهم أهلها». ويؤيده في ذلك الأحداث اللاحقة الثابتة بالمرويات القوية، مثل أخبار قتالهم في غزوة خيبر، وقتل كنانة وأسر صفية، وخبر سلام ابن أبي الحقيق. [انظر د. العمري: المجتمع المدني].

وقد أسلم منهم اثنان، هما: يَامِين بن كعب وأبو سعد بن وهب، ولذا أحرزا أموالهما. [ابن إسحاق].

أما الأموال والنخيل فكانت لرسول الله ﷺ وذلك بنص الآية: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[الحشر:٦] ونزول سورة الحشر في بني النضير [كما روى البخاري]، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُرَاع عُدَّة في سبيل الله. [البخاري].

وقسم الرسول ﷺ أرضهم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار أحدًا سوى سهل ابن حَنِيف وأبي دُجَانَة، وذلك لفقرهما. [عبد الرزاق؛ أبو داود؛ ابن إسحاق].

ولم يتوقف زعماء بني النضير عن مكائدهم بعد كل هذا، فقد حرضوا الأحزاب، فكانت غزوة الخندق. [يأتي ذكره].

خامسًا: حكم وعبر من غزوة بني النضير:

١ - إن في إخبار الله نبيه بما يبيته اليهود للغدر به دليلًا على تكرار الغدر من اليهود، والوفاء من الله تعالى بوعده القاطع لرسوله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة:٦٧]، وفي هذه المعجزة وغيرها ما يجب أن يحمل الناس على الإيمان بنبوة محمد ﷺ.

٢ - إن قطع وإحراق الرسول ﷺ لبعض نخيل بني النضير، دليل على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة في النكاية بالأعداء. وأن ذلك من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية، وهو مذهب نافع ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.

ورُوِيَ عن الليث وأبي ثور والأوزاعي القول بعدم جواز قطع شجر الكفار وإحراقه. [شرح النووي على مسلم].

٢ - اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم من دون قتال، وهو (الفيء) يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، ونزول القرآن الكريم مصوبًا ذلك. [البوطي: فقه السيرة].

٤ - في موقف الرسول ﷺ من بني النضير تقرير لمبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.

المبحث الخامس: غزوة بدر الموعد

خرج رسول الله ﷺ في شعبان [عند ابن إسحاق] سنة أربع من الهجرة لموعده الذي التزم به لأبي سفيان يوم أحد. وكان معه ألف وخمسمائة من الصحابة وعشرة أفراس، ووصل إلى بدر، وانتظر بها المشركين ثمانية أيام.

أما المشركون فقد خرج بهم أبو سفيان حتى وصل إلى مر الظهران، ونـزل بميـاه مجنـة على بعد أربعين كيلا من مكة، ثم عاد بهم بحجة أن العام عام جدب، وكان لهـذا الموقـف منه أثر كبير في استعادة هيبة المسلمين بعد انتكاسة أحد. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

المبحث السادس: غزوة ذات الرِّقَاع

[اختلف في تسميتها، والراجح ما ذكره أبو موسى الأشعري في الصحيح مـن أنهـا سـميت بذلك لأنهم لفوا في أرجلهم الخرق بعد أن تنقبت خفافهم، إذ كان لكل ستة بعير يتعاقبون عـلى ركوبه، [انظر: البخاري].

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغـزوة، وقـد جـنح البخـاري إلى أنهـا كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعـد الخنـدق سنة أربع، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس، وجزم أبو معشـر [كما ذكر ابن حجر في الفتح] أنها كانت بعد بني قريظة والخندق. والراجح عند ابـن حجـر ما ذهب إليه البخاري وأبو معشر، لأن أبا موسـى الأشـعري شـهدها وقـد قـدم مـن الحبشة بعد فتح خيبر مباشرة، وشهدها أبو هريرة وقد أسلم حـين فـتح خيـبر، وصـلى فيها رسول الله ﷺ صلاة الخوف، ولم تكن شرعت في الخندق، بل شرعـت في عسـفان أيام الحديبية، والحديبية سنة ست.

ومال الدكتور الحكمي [مرويات الحديبية]، والدكتور العمري [المجتمع المدني]، إلى مـا ذهب إليه البخاري وابن حجر، والذي نميل إليه هو ما ذهب إليه الدكتور البوطي أنها قبل الخندق لأن حجته الخاصة بزواج جابر قبل الخندق لا تدفع وهي في الصـحيحين، إضافة إلى أن البخاري قد ذكر رأيه معلقًا، وحجته فقط مجيء أبي موسى من الحبشة بعد خيبر، وهي حجة دفعها البوطي بترجيح تعدد الغزوة.

لم يقع في هذه الغزوة قتال بين المسلمين وغطفان، ولكنهم أخافوا بعضهم بعضًا، فصلى المسلمون صلاة الخوف.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين. [البخاري].

لقد وقعت في هذه الغزوة أحداث ذات دلالات ومغزًى كبير، منها:

١- قصة الأعرابي:

روى البخاري ومسلم عن جابر - وغيرهما - عندما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضَاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صَلْتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله، فها هو ذا جالس...**» لم يعاقبه رسول الله ﷺ. واسم الأعرابي: غَوْرَث بن الحارث».

ويذكر قتادة [في تفسير الطبري بسند صحيح]، وابن إسحاق، أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[المائدة:١١] قد نزلت في هذا الأعرابي.

وفي رواية مسدد [عن ابن حجر في الفتح] عن جابر أن الأعرابي غورث عاهد الرسول ﷺ أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: «جئتكم من عند خير الناس».

دروس وعبر من هذه القصة:

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ، وفرط شجاعته، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال. وفيها جواز تفرق العسكر في النزول، ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه. [ابن حجر في الفتح].

٢- قصة الحراسة:

وفي مرجعهم من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة مـن المشـركين، فنـذر زوجهـا ألا يرجع حتى يَهْرِيقَ دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلًا وقد جعل الرسول ﷺ رجلـين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عَبَّاد بن بِشْر وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا بسـهم وهـو قائم يصلي، فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منهـا حتـى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: «سبحان الله، هلا نبهتني، فقال كنت في سورة اقرؤها فلـم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذَنْتُكَ، وايْـمُ الله، لـولا أن أُضَـيِّع ثَغْـرًا أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ بحفظه، لَقُطِعَ نفسي قبل أن أقطعها أو أُنْفِـذَها». [البخـاري معلقًـا؛ ابن إسحاق، حسن].

دروس وعبر في هذا المقطع من السيرة:

في قصة هذين الصحابيين الجليلين كشف لطبيعة الجهاد الإسلامي، وكيف كـان يمارسـه ويفهمه أصحاب رسول الله ﷺ. فعباد رضي الله عنه أراد أن يشغل شطرًا من زمن حراسـته الليليـة بركعات خاشعة، يقف فيهـا أمـام الله تعـالى ولم يقطـع صـلاته لألم يشـعر بـه، وإنـما قطعهـا استشعارًا بمسؤولية الحراسة التي كلف بها. وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهـاد عنـد سلفنا الصالح، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ما عليه نحن الآن!!. [البوطي: السيرة].

٣- قصة جمل جابر:

روى البخاري ومسلم وغيرهما من أهل الحديث، وابن إسحاق [بسند حسن] وغيره من أهل السير عن جابر أنه عندما أبطأ في السير، وهم في طريق العودة مـن غـزوة ذات الرقاع، سأله الرسول ﷺ عن السبب فقـال إن جملـه قـد أعيـاه، فنـزل رسـول الله ﷺ يحجنه بمحجنه، ثم دعاه فركب، فأصبح الجمل يسابق جمل رسول الله ﷺ وجابر يكفه

عن ذلك. ثم سأله عن حالته الاجتماعية، فذكر أنه تزوج ثيبًا، فقال له الرسول ﷺ: «**أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟**»، فعلل سبب زواجه من الثيب بأن له أخوات فأحب أن يتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن. وطلب منه الرسول ﷺ إذا قدم المدينة أن يعمل عملًا كَيِّسًا، ثم قال له: «أتبيع جملك؟» فوافق جابر، فاشتراه منه بأوقية، وعندما أتى بالجمل من الغد إلى الرسول ﷺ أمر الرسول بلالًا أن يعطيه الأوقية. فوزن له بلال فأرجح له في الميزان، وعندما ولَّى دعاه الرسول ﷺ ورد عليه جمله.

وفي رواية ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قال لجابر عندما علل سبب زواجه من ثيب: «**أصبت إن شاء الله**»، وفيها أنه قال له: «... أما أنا لو قد جئنا صِرَارًا أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها».

فقال جابر: «والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، فقال النبي ﷺ: إنها ستكون... وفيها قول جابر عن الأوقية التي أعطيت له: فوالله ما زال ينمي عندي، ويرى مكانه من بيتنا...».

درس وعبرة في هذه القصة:

في هذه القصة صورة كاملة ودقيقة لخُلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث اللطف في المعاشرة ورقة الحديث، وفكاهة في المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه والوقوف على أحوالهم والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية ماديًا ومعنويًا. فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيدًا في أحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق، فأراد الرسول ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة ليواسيه ويقدم له ما يستطيع من مال مبارك. [البوطي: السيرة].

المبحث السابع: غزوة دُوْمَة الجَنْدَل

يتفق جمهور أهل المغازي والسير أنها كانت في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، وبالتحديد لخمس ليال بقين من ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

لم يذكر ابن إسحاق سببها، بل الذي ذكره الواقدي وابن سعد، وخلاصته: بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا، وأنهم يظلمون من مر بهم من الضافطة [جمع ضافط، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن. وكانوا يومئذ قومًا من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت]، وكان بها سوق عظيم وتجار، وضَوَى إليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فندب رسول الله ﷺ الناس فخرج في ألف من المسلمين، ومعهم دليل من بني عُذْرَة يسمى مَذْكُور، وقبل وصول دومة الجندل بيوم أو ليلة هجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب. وعندما وصل الخبر دومة الجندل، تفرقوا. وعندما وصلهم لم يجد أحدًا في المكان، فأقام بها أيامًا، وبث السرايا التي كانت ترجع بالإبل فقط، إلا سرية محمد بن مسلمة، فقد أخذ رجلًا منهم، وعرض عليه الإسلام، فأسلم. ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة.

وزاد الواقدي سببًا آخر لهذه الغزوة، وهو أن الرسول ﷺ أراد أن يدنو من الشام ليفزع قيصر.